HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

تطور التعليم الأهلي في الولايات العراقية حتى عام 1914

م.د. خنساء زكي شمس الدين[1]

[1] وزارة التربية العراقية/ المديرية العامة للإشراف التربوي

تاريخ القبول: 2020/11/29م تاريخ النشر: 2020/12/01م

المستخلص

لا يخفى على أحد أن التعليم مرآة عاكسة لواقع وفلسفة المجتمع وتأريخه ومدى تطوره وآفاق طموحاته المستقبلية، فضلا عن دوره الفاعل في تيقظ الأفكار وتنمية الوعي، وتوسيع قاعدة المتعلمين.

في ضوء ذلك، جاء هذا البحث لكي يسلط الضوء إلى طبيعة التعليم الأهلي في الولايات العراقية حتى عام 1914، بهدف تشخيص مشكلاته ، إذ قُسم البحث إلى ثلاث محاور رئيسة، تناول المحور الأول جذور التعليم الأهلي في الولايات العراقية، والذي تطرق إلى التعليم الديني وهي الكتاتيب، والمدارس العلمية الأهلية، وابرز المحور الثاني دور التعليم الأهلي الحديث في ولايتي بغداد والبصرة، فيما درس المحور الثالث أثر الأهلي الأجنبي في الولايات العراقية حتى عام 1914.

RESEARCH ARTICLE

THE DEVELOPMENT OF PRIVATE EDUCATION IN THE IRAQI STATES UNTIL 1914

Accepted at 29/11/2020 **Published at 01/12/2020**

Abstract

Education is a reflection of the reality and philosophy of society, its history, its development, and the prospects of its future aspirations. Therefore, modern education has become one of the pillars of the Renaissance in most countries in the world, because it provides scientific cadres that help in building society, as well as its active role in awakening ideas and developing awareness, and expanding the base of learners.

In light of this, this research aims to shed light on the development of private education in the Iraqi brigades until 1914, with the aim of diagnosing its problems in terms of causes, distances and consequences. The third axis focused on the role of modern private education in the states of Baghdad and Basra, while the third axis examined the impact of the foreign national In the Iraqi brigades until 1914.

أولاً: الجذور التأريخية للتعليم الأهلي في الولايات العراقية:

أ. ذات الطابع الديني:

أصبحَ العراق بولاياته الثلاث(بغداد، البصرة، الموصل)، تحت السيطرة العثمانية منذ منتصف القرن السادس عشر، في حالة فوضى واضطرابات في أوضاعه السياسية والإقتصادية والاجتماعية والثقافية، إذ كان العثمانيون عاجزين عن قيادة تلك الولايات ودفعها إلى التقدّم والنهوض، وأصبحتْ في حالة يُرثى لها من التأخر العلمي والتقهقر الثقافي، وبقيت محرومة من التجدد واقتباس الحضارة واقتصرتْ الدراسة على الجوامع والتكايا، وتركز التدريس فيها على شؤون الدين وما يتصل به من علوم[1].

ولولا مدارس النجف الأشرف وكربلاء المقدسة وبغداد والكاظمية وسامراء والموصل، وغيرها من المدن الأُخرى لقضي على اللغة العربية وآدابها، ولم يجْرِ في العراق أي إصلاح ملحوظ حتى أواسط القرن التاسع عشر حين شهد محاولة إصلاحية في عهد(مدحت باشا 1896–1872)، الذي عُين والياً على بغداد وزود بصلاحيات واسعة لتنفيذ إصلاحاته في الولايات الثلاث[2].

يُعدّ مدحت باشا أول والي عثماني عمل على تحديث بعض جوانب الحياة ومنها التعليم، إذ لم يكن في العراق من المدارس الحديثة التي تقوم على النمط الأوربي، من حيث وجود منهج دراسي يتضمن مفردات المواد الدراسية وأغراض دراستها قبل ولاية مدحت باشا؛ سوى بضعة مدارس ابتدائية تابعة للإرساليات التبشيرية في الموصل وبغداد[3].

على الرغم من ذلك، لم تصل إلى نسبة التعلم في العراق إلى نصف في المائة في أواخر العهد العثماني، نتيجة سوء الإدارة وسياسة جمع المال التي أنتهجها السلاطين، ولم يبقِ من قبس يضيء ظلمات الجهل في العراق إلا– التعليم الأهلي– الذي كان ممثلاً في الجوامع والمساجد، التي غدتْ مدارس للعلم والأدب، فكان لها الفضل الأول في حفظ اللغة العربية وإقامة صرح الحركة الفكرية في العراق[4].

من جانب آخر، تنافس الولاة والسلاطين العثمانيون في تأسيس المدارس الدينية العلمية في بغداد وغيرها من الولايات، واتبعوا في سياستهم قاعدة (فرق تسد) بين الطوائف العراقية في تأسيس المدارس العلمية لفئة دون أُخرى، إذ كان لتلك السياسة التي وقفتها السلطة العثمانية الحاكمة، إلى جنب فئة بذاتها مدعاة لانكماش الفئة الأُخرى وتجنبها كل اتصال مباشر بها، ذات أثر كبير بين أبناء الوطن الواحد بفعل تلك النعرة الطائفية البغيضة التي كانتْ تغذيها المطامع التوسعية، والتي استغلتْ استغلالاً كبيراً لم يكن في صالح الأُمة بشيء، مما جعل الأمية تنتشر انتشاراً كبيراً في الولايات العراقية كافة، فكانتْ بذلك أول مشكلة جابهتْ التعليم الأهلي في العراق[5].

في ضوء ذلك، بدأتْ كل طائفة تهتم بأمورها العلمية والثقافية طيلة خضوعها للسيطرة العثمانية، غير إن المراحل والمناهج الدراسية لم يطرأ عليها أي تغيير بفعل ذلك الانقسام، إذ ظلتْ تلك المعاهد تحمل نفس الأسماء وتسير إلى حد ما على نفس الأسلوب والطريقة في التدريس[6].

ومن الأهمية بمكان عند دراستنا لتطور التعليم الأهلي في العراق حتى عام 1914، أن نستعرض حالته في القرن التاسع عشر. وبهذا الصدد كان في العراق نوعان من التعليم الأهلي: نوع ذات الطابع الديني فيه هو المتغلب والممثل في(الكتاتيب والمدارس العلمية) في الجوامع والمساجد. ونوع آخر– هو(التعليم الأجنبي)، الممثل في الإرساليات التبشيرية والجاليات الأجنبية.

انتشرت الكتاتيب في إنحاء مختلفة من الولايات العراقية، انتشاراً كبيراً ومما ساعد على ذلك أن الدولة العثمانية لم تكن، في البداية، تعد الخدمات التعليمة من اختصاصها؛ وإنما من اختصاص الأفراد والجماعات، فكان التعليم في تلك المؤسسات مجانياً، إلا

أن الآباء عادة كانوا يسهمون في تقديم بعض الأموال إلى المعلمين(المُلا) الذين يعلّمون الأطفال القرآن الكريم، والكتابة والحساب[7].

والكتاتيب أو ما يُعرف بـ(الملالي) في العراق هي المعاهد التعليمية الأولى التي يدخلها الأطفال في الغالب بعد إتمامهم سن الثالثة أو الرابعة من العُمر، وكانتْ تلك المعاهد البسيطة قائمة في مختلف أنحاء الدولة العثمانية وفي البلاد العربية كافة حتى أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، رغم ما طرأ عليها من تحوير وتطوير على نظام العمل فيها، إذ كانتْ الكتاتيب بصورة عامة ملحقة بالمساجد والجوامع أو مستقلة عنها في مباني مشيدة لهذا الغرض[8].

كانت الغاية الأساس من تأسيس تلك الكتاتيب في البلاد هو تحفيظ آيات القرآن الكريم وتلقينهم أصول الدين وأحكامه فكان الطفل بعد إتمامه الثالثة أو الرابعة من عمره يدخله أبوه في الكُتاب، وليس ذلك الكُتاب في العادة إلا حجرة أو سرداباً تغلب على جوه الظُلمة والحرمان من ضياء الشمس، ويضم ذلك المكان الضيق عدداً من الأطفال، إذ لا توجد صفوف منتظمة؛ بل يفترشون الأرض واضعين بين أيديهم القرآن الكريم أو أحد أجزائه وهو عادة(جزء عُم) للمبتدئين من الأطفال، ويزودون بألواح خاصة بالكتابة ومحبرة وبعض أقلام من القصب كي يكتبوا عليها الحروف الأبجدية في دراسة الخط والحساب. وكان للخط مكانة مهمة جداً في طريقة التعليم الماضية ،لأن الدقة في رسم الكلمة تؤدي إلى الوضوح في صورتها الذهنية ثم إلى الصحة في لفظها. أما العلوم الأخرى من التاريخ ومبادئ العلوم الطبيعية فلا تذكر، ولم يكن هنالك جدول معين للدروس، وإذا استثنينا درس القرآن الكريم الذي يفتتح به التدريس في كل يوم، ثم الخط ، وكان يأتي في آخر النهار. كما لم يكن المهم في ذلك أن يتبدل الدرس من انتهاء الساعة الزمنية

أو الحصة المعينة؛ بل كان المهم أن يتقن الأطفال الموضع الذي كان المُلا يمرنهم عليه قبل الانتقال إلى درس جديد أو موضوع آخر[9].

يبدو مما تقدم إن المستوى الثقافي للمُلالي في العهد العثماني قد تضاءل تبعاً لسوء الأحوال وتدهورها آنذاك، فبات أكثر المُلالي لا يملكون الثقافة، إلا حفظ القرآن وقراءة الأدعية مع معرفة بسيطة بالدين، إذ تولى تلك العملية في العراق الكثير من الإيرانيين والهنود والأفغانيين وغيرهم.

وعن نظام التعليم في تلك الكتاتيب ذكر الباحث (عبد الرزاق الهلالي) [10] " **لقد كان الأب يقود ابنه إلى الكُتاب في العهد العثماني، وبعد أن يتفق مع المُلا على الأجور يخاطبه بقوله هذا ابني لك من اللحم ولي منه العظم، أي إن الآباء في ذلك العهد كانوا يرون في المُلا المهذّب الأول لأولادهم، فهم يخولونه حق تأديبه ومعاقبته بأقسى العقوبات، إن هو أساء التصرف والأدب أو قصّر في أداء واجباته**"[11].

في السياق نفسه كانتْ هناك عدد من الأُسر تبعث بناتها للتعليم في بعض المدارس للطوائف غير المسلمة، وهنَّ بلا ريب قلة بالنسبة لغيرهن، بينما ازدادتْ كتاتيب البنات بصورة خاصة في المدن المقدسة ومدن الفرات الأوسط؛ بسبب ما تحتمه الضرورة من وجود مُلايات يقرأن مقتل الحسين(عليه السلام) في شهر محرم أو الأشهر الأخيرة أو في قراءة المواليد في المناسبات المختلفة، وبالرغم من قلة كتاتيب البنات كانتْ تجري في بيوت المُلايات نفس الأسلوب الذي كان يتبع في كتاتيب الأولاد مع اختلاف في تلاوة بعض السور، وتدريبهن على بعض الأشغال اليدوية والمنزلية[12].

يتضح إن الاهتمام بتعليم البنات كان ضيقاً ومحدوداً، لكونها كانتْ مُحاطة بتقاليد صارمة، ولم تبدِ عناية خاصة لتكوين مدارس حديثة تتبع السُبل الصحيحة في التقويم والتربية، وقد ظل ذلك الاتجاه سائداً في تلك الأوساط العراقية حتى عهد متأخر، عندها اخذ الأطفال يتهافتون إلى مدارس البنين والبنات إذا اختفتْ فكرة الرفض، وأخذتْ تضعف وحل محله اتجاه معاكس يدعو إلى

حصول البنات على نصيبهن من التعليم.

نتيجة ذلك، بدأتْ الكتاتيب تضمحل وتتناقص شيئاً فشيئاً، لاسيما في الحقبة الأخيرة من الحُكم العثماني للبلاد، بعد أن حلتْ محلها المدارس الحديثة والتي سارتْ على النهج الغربي في أنظمتها ومناهجها في أوائل القرن التاسع عشر، إذ باشرتْ الدولة بفتح المدارس الأولية والابتدائية والرشدية في بعض أجزاء العراق، كي تحل محل الكتاتيب لأنها غدتْ غير ملائمة للمبتدئين وتسير وفق أساليب قديمة لم تتغير وتتطور منذ قرون عديدة، ولم تُساير روح العصر؛ بل بعكس ذلك فقد تقهقرتْ إلى الوراء، لأنها تجردتْ بالتدريج عن جميع العلوم العقلية وصارتْ تكاد لا تهتم بشيء غير العلوم النقلية[13].

كان من الطبيعي أن يُلفتْ أنظار المفكرين إلى عدم كفاية ذلك النوع من التعليم، فكان أمام الولاة أو الحُكام الذين أدركوا بضرورة اقتباس بعض العلوم العصرية والنُظم الحديثة لمسايرة ركب الحضارة والمدنية، طريقان الأول: هو في إصلاح تلك المعاهد التعليمية الموجودة(الكتاتيب)، ولو بصورة تدريجية بإدخال العلوم العقلية والنُظم الحديثة فيها. والثاني ترك تلك المعاهد القديمة جانباً وإنشاء معاهد تعليمية جديدة لتدريس العلوم العصرية وفق النُظم الحديثة.

بيدَ إن تطور الأحوال الاجتماعية السائدة اضطرتْ رجال الحُكم والإصلاح إلى اختيار الطريقة الثانية بترك المعاهد التعليمية القديمة تسير على سيرتها المعتادة واخذوا ينشئون بعض المعاهد التعليمية الجديدة كلما شعروا بالحاجة إليها، ولم تزدد العناية والاهتمام بها إلا بعد هيمنة (جمعية الاتحاد والترقي)[14] على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية في تموز عام 1908، بيد إن انتشار المعاهد الحديثة لم يوقف مهمة الكتاتيب وعملها في ميدان التعليم الأهلي، بل ظلتْ مستمرة في أداء مهمتها؛ لأنه لغة التدريس في المكاتب كانتْ تجري باللغة التركية[15].

برغم ذلك تعرضت تلك الكتاتيب لنقد عدد من خبراء التربية والتعليم وكان في مقدمتهم (ساطع الحصري) [16]، إذ ذكر ما نصه: "**اعتقد إن أحداً ممن يقدرون مصالح الشعب على وجوهها الصحيحة لا يأسف على زوال تلك المؤسسات التي تجمع بين أسوأ الظروف الصحية، مع أسخف الطرائق التعليمية**"[17].

لذلك يمكن القول بأن السير بأسلوب التعليم الحديث لم يغير في حالة الكتاتيب في العراق، لذلك أخذت تلك الكتاتيب تتضاءل باستمرار، برغم إن السلطات الحاكمة لم تتعرض إلى المدارس الدينية كافة؛ بل تركتها تعمل وفق نظمها الخاصة وتقاليدها في العتبات المقدسة في مختلف مناطق العراق، إذ حرصتْ السلطة العثمانية على أن تظل تلك الكتاتيب كما كانتْ مؤسسات أهلية لا تتدخل في شانها إلا بمقدار يسير، حرصاً منها على أن تظل محتفظة بثقة السكان، وحتى تكون في يد الحكومة وسيلة شعبية بسيطة لنشر قسط من التعليم الأولي وأن يكون بسيطاً؛ إلا إنه يجدي نفعاً في مُكافحة الأُمية ونشر المعرفة بين الناشئة.

ب: المدارس العلمية الأهلية:

أطلقتْ مصطلح المدارس العلمية على المعاهد الدينية فقط وتلي الكُتاب عادة، أما المدارس الحديثة فأطلقوا عليها(مكاتب)، إذ كانتْ تلك المدارس أشبه شيء بالمساجد، إلا إن الوجهة التعليمية هي الغالبة، وفي المساجد وجهة العبادة هي الغالبة، فأدتْ تلك المعاهد الأهلية خدمات كبيرة وامتزجتْ الواحدة بالأُخرى وتعاونا معاً على التهذيب والتثقيف فقامتْ كل مؤسسة بمهمتها والغاية واحدة[18].

كانت الدولة العثمانية حتى مطلع القرن العشرين تعفي طلاب علوم الدين من الخدمة العسكرية، ولذلك كان ينتظم في صنف الطُلاب الكثير من الشبان هروباً من الجندية، ومع إن أغلب هؤلاء لم يكونوا طُلاباً حقيقيين، ولكن عقب ذلك أخذتْ تلك

المدارس تفقد ما كانتْ عليه من علو المركز والأهمية رغماً عن انتعاش اللغة العربية واتخاذها لغة التعليم الرسمية، إذ أخذ عدد طلابها يتناقص شيئاً فشيئاً، فلما زالتْ الحكومة العثمانية من العراق، لم تقرر الحكومة العراقية التجنيد الإجباري، وعندما شوهد الكثير من ضيق عيش علماء الدين، قل إقبال الشُبان على المدارس العلمية الأهلية أكثر من ذي قبل[19].

ويبدو إن هناك سبباً آخر هو رجحان طرئق التعليم الحديث في المدارس الحكومية والأهلية على ئطرق التعليم الأهلي القديم، فضلاً عن الرغبة في الحصول على وظائف حكومية أو تحصيل العلوم العالية وعوامل فكرية أُخرى، مما أدى إلى زيادة الإقبال على المدارس الحديثة وإهمال المدارس العلمية وزوال البعض منها، برغم ذلك ظلتْ كل طائفة متمسكة بمدارسها العلمية الأهلية الخاصة بها. فكانتْ تلك من أولى المشاكل التي جابهتْ التعليم الأهلي بفعل تلك السياسة، التي تبنتها الدولة العثمانية.

من جانبها كانتْ الدولة العثمانية تقسم البلاد التي احتلتها من الوجهة الإدارية إلى ولايات، وكانتْ تنصب على رأس كل ولاية موظفاً كبيراً يُسمى(الوالي)، ويكون مسؤولاً عن جميع أمور الولايات ومشرفاً على أمور (السناجق)[20] التابعة لها، وبناءً على ذلك النظام الإداري، كان العراق في هذا العهد مقسماً إلى ثلاث ولايات هي: الموصل – بغداد – البصرة. وكانتْ ولاية الموصل تضم سنجقي كركوك والسليمانية أيضاً وكانتْ ولاية البصرة تشمل على سنجقي المنتفك والعمارة[21].

في ضوء ذلك، سنتطرق إلى دراسة توزيع تلك المدارس بحسب كل ولاية، لأن لكل منها إدارة مستقلة تُدير شؤونها حينذاك. فبعد الاحتلال العثماني للموصل وتفويض حُكمها إلى (الأسرة الجليلية)[22]، احدث هؤلاء نهضة علمية بذلوها من المساعي الحثيثة في سبيل نشر الثقافة بالمدارس التي شيدوها، وإن الكثير منها شيدها الولاة والأُمراء وبعض الأُسر الموصلية، فنبغ منهم علماء كانوا قادة للنهضة العلمية، إذ غدتْ الموصل من المدن التي تستقطب طلاب العلم لينهلوا من علمها وآدابها، ومن أشهر مدارسها المدرسة الأحمدية ومدرسة ابن يونس النحوي ومدرسة الباشا والرابعية ومدرسة يحيى باشا الجليلي [23].

أما في بغداد فقد سعى العثمانيون إلى فتح بعض المدارس العلمية الأهلية وآزرهم الكثير من الأُسر البغدادية والعلماء في دوامها واستمرارها لتدريس القرآن وعلومه والفقه الحنفي فضلاً عن تدريس علوم العربية من نحو وصرف ومنطق وفلسفة وبديع وبيان وعروض ....الخ. وكانتْ تلك الدراسة كفيلة بأن ترسم لصاحبها الطريق الذي سينتهجه في حقل العلم والأدب والثقافة[24]،

إذ ظلتْ تلك المدارس ومجالسها العلمية مزدهرة على الأكثر، وكانتْ الثقافة فيها ماضية على نهجها العلمي والأدبي الإسلامي، ولكنها بدأتْ تتعثر في أواخر العهد العثماني وزوال أثر البعض منها. ومن المدارس والمعاهد العلمية المشهورة التي كانتْ تجري فيها الدراسة، مدرسة الإمام الأعظم والمدرسة النظامية والمستنصرية والكيلاني والمرادية والمدرسة العلمية والسليماينة والداوودية وغيرها، إلى جانب الكثير من المدارس العلمية التي شيدها محبو العلم والفضيلة من علماء بغداد [25].

في حين كانتْ ولاية البصرة أبان الحكم العثماني مسرحاً للفوضى وعدم الاستقرار السياسي بفعل الفتن والمنازعات والحروب والسلب والنهب، ما جعلها أبعد أن تهتم بشؤون العلم والثقافة، ولم يهتم حُكامها وولاتها كبقية الولايات بتلك الناحية؛ إلا في نهاية القرن التاسع عشر عندما قاموا ببعض الإصلاحات فجدد بناء المساجد وإحياء بعض المدارس كما أُسست عدد من المدارس الأهلية منها مدرس الشيخ عثمان بن سند، ومدرسة السليمانية ومدرسة الرحمانية في محلة باب السيف والمدرسة الرؤوفية الحللية في محلة القبلة ، ذلك إلى جانب ثمان مدارس دينية في الزبير ومدرستان في العمارة والأُخرى في قلعة صالح، ساهمتْ بعض الأُسر في تأسيسها وإدامتها، ثم أُلحقتْ تلك المدارس بإدارة الأوقاف العثمانية[26].

فضلاً عن تلك المدارس العلمية الأهلية في الولايات الثلاث، تأسستْ معاهد ومدارس علمية أهلية ذات طابع ديني خاص

وإنحصرتْ تلك المعاهد والمدارس العلمية بين مدن النجف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء، وبهذا الصدد كانتْ النجف الأشرف داراً للعلم ومركزاً مهماً للتدريس على المذهب الجعفري، وظلتْ تؤدي واجبها العلمي والديني رغم انتقال مراكز الدراسة إلى غيرها كالحلة وكربلاء في حقب متعددة، إذ عُدت النجف منذ عهد يناهز الألف عام معهداً للدراسات الإسلامية العالي في حقول الفقه والأصول والتفسير والفلسفة الإسلامية إلى غير ذلك من العلوم العقلية والنقلية، وفي الوقت نفسه كانت مقراً للحوزة العلمية التي عاشتْ الأجيال، وقطعتْ شوطاً بعيداً في مسيرتها العلمية[27].

كما غدتْ النجف محط أنظار الراغبين في تحصيل العلم والاجتهاد من شتى أقطار العالم الإسلامي فلقد بلغ عدد الطلبة الذين كانوا قد توافدوا إلى مدارسها في أواخر العهد العثماني، نحو عشرة آلاف طالب بين عراقي وسوري ولبناني وبحريني وكويتي وإيراني وهندي وتركماني وأفغاني وغيرهم[28]. ومما تجدر الإشارة اليه في هذا الصدد هو إن مدارس النجف الأشراف كانت تقوم بجهود العلماء والإفراد من أبناء الشيعة أنفسهم. أما الصرف عليها وعلى طلبتها والأفراد فيتم بواسطة العلماء والمجتهدين مما يرد أليهم من أموال الخمس والهبات والتبرعات التي يقدمها الميسورين في ذلك الحقل، وليس للحكومة أي صلة بتلك المدارس أو بشؤون الصرف عليها. ومن أبرز تلك المدارس والمعاهد الأهلية في النجف هي مدارس (السليمية، المعتمد، المهدي الشيرازي، القوام، الايرواني، الشربياني، الخليلي، القزويني، كاظم اليزدي، البخاري، الصدر) [29].

في السياق نفسه، لم تعترض طريق عمل تلك المؤسسات الدينية إلا تشكيلات المعارف في الدولة أبان الحُكم العثماني الأخير للبلاد، إذ بادرتْ بإنشاء المكاتب الحديثة على النهج الغربي وأغفلتْ أمورها والعناية بها وبمدارسها، وأخذت بتحويل الكثير من معاهد الدراسة الأهلية إلى معاهد علمانية يكون الإشراف عليها من اختصاص الدولة لا رجال الدين، فأهملتْ بذلك أمر الدراسة في تلك المؤسسات وتركتها وشأنها. فلم يكد ينتهي الحُكم العثماني حتى تغيرتْ حال تلك المدارس وتبدلتْ نظرة الدولة لها وعزف عنها الدارسون، اللهم إلا أولئك الطُلاب الذين قرروا الاستمرار في تحصيلهم العلمي الديني فيها. أما الآخرون فقد وجدوا في المدارس الجديدة خير بديل لهم، ولم يعدّ لأسلوب الدراسة القديمة في المدارس من مؤيد، لذلك سارتْ الأُسر في إدخال أبنائها في مدارس حكومية وأهلية إلى جانب المدارس الأجنبية والإرساليات التبشيرية في البلاد، حتى وصل أجمالي عدد تلك المدارس في العراق إلى (149) مدرسة في أواخر العهد العثماني[30].

ثانياً: دور التعليم الأهلي الحديث في ولايتي بغداد والبصرة.

1- التعليم الأهلي في ولاية بغداد:

تمخض عن الانقلاب العثماني الذي تم في الثالث والعشرين من تموز 1908، عن تظاهر السلطان عبد الحميد الثاني(1876-1909)، باستجابة مطالب جمعية الاتحاد والترقي، إذ نشرت تلك الجمعية برنامجها السياسي، وقد نص فيما يتعلق بالتعليم" **على أتباع الدولة سياسة تعليمة ترمي إلى تربية النشء العثماني تربية موحدة، والسعي في تقوية الاتحاد والإخاء بين العناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية على أن تبقى التركية اللغة الرسمية**"[31].

يبدو أن ما جاء في تلك السياسة من مبادئ العدالة والمساواة، كانت الباعث الكبير في نفوس الناس، الذين تطلعوا إلى النور والعلم والمعرفة. فكانت الهيأة الإصلاحية التي جاءت إلى بغداد وقيامها بفتح المدارس، عاملاً من العوامل التي حركت الطوائف المختلفة ودفعتها للتفكير في تثقيف أبنائم الثقافة الحديثة والعلوم العصرية. لذلك تم أنشاء عدد من المدارس الأهلية والأجنبية عقب ذلك التأريخ. وفي مقدمة تلك المدارس هي:

مكتب الترقي الجعفري العثماني (المدرسة الجعفرية):

إذا أردنا الحديث عن تاريخ مدرسة مكتب الترقي الجعفري العثماني، فيجب أن نعود بالذاكرة إلى مطلع القرن العشرين، إذ بدأ يدب الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي في العراق

كغيره من البلاد التي كانتْ خاضعة لنفوذ الإمبراطورية العثمانية ومحرومة من أسباب النهضة الحديثة، بفعل تبني العثماني في سياستهم مبدأ (فرّق تسدّ) بين سكان العراق أنفسهم، فقد كانت تتعصب ضد أبناء الطائفة الشيعية في مختلف المجالات، كان من أبسطها حرمانهم من الاستفادة من المدارس التي أنشأتها السُلطات العثمانية، لكي لا يطمعوا بعد ذلك بالوظائف الحكومية، إلى جانب ذلك كان الشيعة أنفسهم يحومون المدارس العثمانية الحديثة ويعتبرونها مفسدة للدين والأخلاق[32].

على أثر الانقلاب العثماني عام 1908، حصل تبدل في نظرة الدولة نحو الشيعة، الذين توقعوا أن تنعم طائفتهم بالحرية في ظل الدستور، كما كانت تأمل الطوائف الأخرى ذلك. وبدافع من تلك الآمال سعت مجموعة متنورة من الشيعة إلى الحصول على اجازة لتأسيس مدرسة لتعليم الأولاد، وكان في مقدمتهم جعفر ابو التمن وعلي البازركان، ومهدي الخياط ورؤوف القطان[33].

ومما نبه تلك المجموعة إلى أهمية ذلك المشروع، هو أن هناك بعض المدارس اليهودية، كانت تخرّج سنوياً عدد من اليهود يقومون بدور كتّاب لدى التجار المسلمين، وقد أصبحوا بحكم معرفتهم المراسلات باللغات الأجنبية واطلاعهم على أسرار التجارة، وقد تعدى الأمر إلى سيطرتهم في بعض الأحيان على المحلات التجارية من أيدي المسلمين[34].

ولتأسيس تلك المدرسة قصة طريفة ولكن مهمة، لأنها تكشف لنا صورة من صور تأريخ التعليم الأهلي في تلك المدة. وملخصها أن الحاج سلمان أبو التمن استورد سماورات[35]، جميلة الشكل، وقد نفدت من السوق، وأن احد أصدقاء علي البازركان قد طلب منه أن يشتري له سماور من الحاج سلمان، ولما طلب البازركان ذلك من الحاج سلمان اعتذر الأخير لنفادها، ولما علم أنها مطلوبة في السوق أوعز إلى كاتبه اليهودي (شميل سوميخ) أن يكتب له برقية إلى روسيا القيصرية لطلب كمية منها، فحرر الكاتب اليهودي البرقية، وبعد مدة شاهد علي البازركان سماورات من نفس النوع في محل آخر، فعاتب الحاج سلمان على عدم بيعها له، فدهش الأخير وذهب ليتأكد من وجودها في ذلك المحل، فلما شاهد الحاج سلمان سأل صاحب المحل عن مصدرها، فأخبره عن شرائها من أحد اليهود. فتأثر الحاج سلمان من خيانة كاتبه اليهودي الذي أخفى البرقية وطلب من أحد التجار اليهود أن يستورد ذلك النوع. ومن تلك الحادثة استطاع علي البازركان أن ينبه الحاج سلمان إلى ضرورة إعداد شباب من المسلمين يتقنون اللغات الأجنبية لاتخاذهم كتاباً وكاتمي أسرار تجارتهم، ولا يكون ذلك إلا عن طريق فتح مدرسة، ولكن الحاج سلمان أوضح لعلي البازركان، إن ذلك المشروع سوف يلاقي المعارضة من الناس الذين يعتبرون ذلك العمل من باب الكفر[36].

ولما كانت الفكرة تحتاج إلى المال فقد استطاع جعفر أبو التمن من أقناع أبيهِ على تبني الفكرة، وقام بدعوة عدد من الشخصيات للحضور إلى دار ولده الحاج داود، في الثامن من تشرين الثاني 1908، وكان من جملة الحضور علي البازركان، مهدي الخاصكي، عبد الكريم حيدر، السيد علي مهدي البغدادي، الحاج حسن الشهرباني ، الحاج داود أبو التمن، الحاج سلمان أبو التمن، والشيخ شكر الله أحد علماء الدين الشيعة في بغداد، وقرر هؤلاء تأسيس مدرسة وكونوا هيأة مؤسسة لها، وانتخبوا الشيخ شكر الله رئيساً للهيأة وجعفر أبو التمن أميناً للصندوق، وأخذوا يجمعون الإعانات لتأسيس تلك المدرسة[37].

قررت الهيأة المؤسسة إرسال كُلٍ من علي البازركان وجعفر أبو التمن لتقديم عريضة إلى والي بغداد(عبد الله باشا) يطلبون فيها السماح بفتح مدرسة باسم(مكتب الترقي الجعفري العثماني)، وقد جرت مناقشة بين مقدمي الطلب والوالي حول سبب

فتح المدرسة مع وجود مدارس حكومية وعن سبب تسميتها بالجعفرية، إذ طلب الوالي حذف اسم الجعفرية من اسم المدرسة، ولكن أجابه علي البازركان لا يوجد جعفري في المدارس الحكومية، بينما أصر جعفر ابو التمن على الاسم، وافهم الوالي أن الغاية من التسمية لم تكن لنعرة طائفية، ولكن تأسيس المدارس الأهلية فكرة حديثة لا تجذب الناس، فالقصد من الاسم أن يشعر أبناء المذهب الجعفري أن المدرسة منهم واليهم فُيقبلونَ على إرسال أولادهم أليها، فأقتنع الوالي ووافق على أجازة المدرسة[38].

أُعِدَ للمدرسة دار تقع بالقرب من مسجد الحاج داود أبو التمن وتم تأثيثها، وكانت تلك الدار قد استؤجرت لمدة عامين، ودفع بدل الإيجار الحاج سلمان أبو التمن من ماله الخاص، وجرى افتتاح المدرسة في الثاني عشر من كانون الأول 1908، باحتفال كبير، كان عدد الطلاب الذين سجلوا عند افتتاحها نحو (300) طالب توزعوا على مختلف مراحل الدراسة التي احتوتها المدرسة من (روضة وابتدائية ورشدية) لتعليم ألاميين مبادئ القراءة والكتابة، وتعليم الحساب واللغات التركية والفرنسية لمن يعرف القراءة، أما إدارة المدرسة فقد كانت بعهدة الشيخ شكر الله وعلي البارزكان معاوناً له، وجعفر أبو التمن أميناً للصندوق للمدرسة[39].

سعى جعفر أبو التمن لإقناع أبناء الطائفة الجعفرية الدخول إلى المدرسة، بالنظر لموقف تلك الطائفة إلى المدارس وتحريمها، فقد استطاع جعفر ابو التمن بما بذله من جهد الاتصال بعلماء الدين في كربلاء والنجف، للحصول منهم على فتاوى تحث على الإقبال على التعليم في المدرسة، إذ نشر رسالة بعنوان(فتوى بجواز دخول الجعفريين المكاتب للتعليم) جاء فيها :" **جواز دخول أولاد الجعفرية إلى المكاتب لتعليم العلوم والمعارف واللغات المختلفة التي تمس الحاجة إلى تعليمها، وتقضي الضرورة بعدم جهلها مع التحفظ على القواعد الإسلامية ...لذا إن علماء الإسلام المجتهدين في النجف وكربلاء دفعاً للشبهة الواقعة في أذهان الجهلة**

قد كتبوا لعموم الجعفرية يحثونهم ويشوقونهم على تأسيس وتشييد هكذا مكاتب، حاوية للشروط المتقدمة وذكروا أن ذلك أفضل الإعمال الخيرية"[40].

سارت المدرسة منذ ذلك التأريخ باندفاع، غير إن نشوب الحرب العالمية الأولى عام 1914، سبب بعض الفتور فيها، رغم ذلك تخرج من (المدرسة الجعفرية)[41]، عدد كبير من الرجال الذين تولوا المناصب العليا في المملكة العراقية[42].

تأسيساً على ما تقدم، تُعد مدرسة مكتب الترقي الجعفري العثماني(الجعفرية) أول مدرسة أهلية (وطنية) غير رسمية في تأريخ بغداد الحديث، استهدف مؤسسوها من إنشائها سد ثغرة خطيرة في ثقافة الشعب، إيمانا منهم بان الثقافة الصحيحة هي الأداة الناجحة لحماية الوحدة الوطنية وتأكيدها. فكان من الطبيعي إن تصطدم هذه الفكرة بجملة من العقبات لدى الكثير من الناس ذوي الاتجاهات المُحافظة والتقليدية، فضلاً عن تخوف السلطة العثمانية من تقاطعها مع سياسة التتريك القائمة وقتذاك. لذلك ظلتْ المدرسة الجعفرية منذ تأسيسها، تسير على النهج المرسوم لها وتؤدي رسالتها في حدود إمكانياتها المتوفرة، كما كانتْ مركزاً وطنياً مهماً منذ تأسيس الحُكم الوطني في العراق.

2. التعليم الأهلي في ولاية البصرة:

أ. مدرسة تذكار الحرية:

رافق تاريخ البصرة، تاريخ حافل بالحروب والفتن والمنازعات بفعل غارات البدو إليها من جهة ومنازعات الفرس والعثمانيين من جهة أُخرى. لذلك كانتْ الحياة فيها أشد إضطراباً وفساداً وتأخراً مما كانتْ عليه بغداد والموصل، لاسيما في نشاطها الثقافي والعلمي. فبرز (سليمان فيضي 1885–1951) ، احد المهتمين في هذا الجانب، وظهرت مساهمته في تأسيس مدرسة هدفها إعداد

أجيال تقوم بخدمة وطنها على أساس صحيح، واثارة الوعي القومي عن طريق الاهتمام باللغة العربية[43].

في ضوء ذلك قدم سليمان فيضي طلباً إلى السلطات في البصرة، رام فيه السماح له بتأسيس مدرسة إعدادية أهلية باسم(**تذكار الحرية**) تيمناً بعهد الحرية الذي بزغ عقب انقلاب تموز عام 1908، ويكون التدريس فيها باللغة العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية، على غِرار المدارس العربية الأهلية في بيروت ودمشق. إلا إن السُلطات العثمانية أبدتْ اعتراضها لأن اسم المدرسة عربي ولغة التدريس فيها باللغة العربية مما يتعارضان والقوانين العثمانية المتبعة في البلاد، واقترحتْ السُلطة عليه بتغيير أسمها إلى(يادكار حريت)، وسمح لهُ بالتدريس باللغة العربية إلى جانب التركية، بموجب هذه الشروط تمتْ الموافقة على الإجازة ثم جرى حفل الافتتاح لها في السابع والعشرين من تشرين الثاني 1908[44].

قوبل افتتاح المدرسة بالثناء والتقدير من قبل العديد من أبناء البصرة، لاسيما عقب اختيار عدد من الأساتذة الأكفاء للعمل في تلك المدرسة، واعتمدت في دفع رواتب مدرسيها وشراء الكتب على التبرعات التي كان يقدمها الموسورون من أهالي البصرة بشكل متواصل، فضلاً عن المبالغ التي تستوفيها المدرسة من طلبتها الأغنياء، وقد استثنت المدرسة الطلبة الفقراء من تلك الالتزامات، فبلغ عدد طلبتها (160) طالباً[45].

غير إن تلك المدرسة لم يكتب لها الاستمرار بتأدية رسالتها التربوية والقومية على أكمل وجه وذلك بعد عام واحد على تأسيسها بسبب التهديد والقيود التي فرضتها(جمعية الاتحاد والترقي)، على إدارة المدرسة، كان منها تغيير اسم المدرسة إلى (مدرسة الاتحاد والترقي)، وجعل التدريس فيها باللغة التُركية[46]. واجهت تلك الخطوة معارضة شديدة من الأهالي فلم يؤّمها في السنة الدراسية اللاحقة سوى عدد قليل من الطلاب لذلك اضطرت قيادة جمعية الاتحاد والترقي إلى إغلاقها، وهكذا قُضِيَ على هذا الأثر التربوي الجليل في مدينة البصرة.

2. المدرسة الصناعية الأهلية:

لم يكن في مدينة البصرة مدرسة للصنائع أسوة بما كان في بغداد وكركوك، فقد حاول (سليمان فيضي)، أن يخطو في هذا السبيل لإنشاء مدرسة صناعية على شكل شركة مساهمة للمنسوجات على غِرار شركة المنسوجات التي كانتْ قائمة في بغداد حينذاك، يكون رأسمالها مبدئياً ألف ليرة عثمانية، وقد قام فعلاً بدعوته تلك وعقد اجتماعاً عاماً في الثامن من تشرين الأول 1909، حضره عدد كبير من الوجوه، وبعد إن بين لهم غرض الاجتماع، هو تعليم الأيتام وأولاد الفقراء بأجور قليلة مقابل، إيوائهم وتعليمهم القراءة والكتابة فيعود المشروع بالنفع على طلابها وعلى الشركة التي كانتْ في الحقيقة نواة لصناعة المنسوجات في البصرة، استطاع جمع مبلغاً قدره(440) ليرة ذهبية؛ إلا إن مشروعه لم ينفذ بسبب موقف الوالي العثماني (سليمان نظيف) ومعارضته بحجة إن السُلطة ستقوم بإنشاء مدرسة رسمية للصنائع مجهزة بكافة الوسائل اللازمة، نتيجة ذلك أخفق المشروع ولم تُؤَسَّسْ في البصرة أي مدرسة صناعية[47].

ثالثاً: أثر التعليم الأهلي الأجنبي في الولايات العراقية حتى عام 1914.

كانت هناك مدارس خاصة يرتادها أبناء الطوائف الدينية الأخرى، إلى جانب الكتاتيب والمدارس الدينية والأهلية، وتقسم إلى نوعين الأولى مدارس الإرساليات التبشيرية وهي المدارس التي أسستها الإرساليات التبشيرية، أما ألأخرى فهي تلك المدارس التي أضطلع بتأسيسها رعايا الدولة العثمانية ومن أبناء الطوائف المسيحية واليهودية. وبهذا الصدد مر بنا أن الحكومة العثمانية أغفلتْ

شؤون التربية والتعليم في الولايات العراقية، وتركتْ الباب مفتوحاً لمختلف الطوائف المسيحية المؤلفة من الكاثوليك ومن غير الكاثوليك، والطائفة اليهودية.

رمت الدولة العثمانية في سياستها الداخلية إلى عد كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية من غير المسلمين جماعة قائمة بذاتها، فكانتْ تمنحهم الامتيازات الخاصة في كل ما يمتْ بصلة إلى الشؤون الدينية والمذهبية، واعتبرتْ التعليم من جملة الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب فخولتهم حق تأسيس المدارس الخاصة بهم وإدارتها، فكانت مدارس تلك الطوائف في بادئ الأمر من نوع المدارس الدينية[48].

غير إن تلك المدارس تطورت بعد ذلك بسرعة وتحولتْ إلى معاهد تعليمية عصرية، تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجماعات ومذاهبها، ولاتمتْ بأية صلة إلى المناهج الحكومية واتجاهاتها، وكثيراً ما كانتْ تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية داخل البلاد العثمانية أو من البلاد الأجنبية نفسها، بحسب العلاقات الدينية والمذهبية التي كانتْ تربط الجماعة بتلك البلاد الأجنبية[49]. سببتْ تلك المدارس الكثير من المشكلات التي واجهتْ التعليم الأهلي، ولابدّ لنا من إلقاء الضوء على دور وأثر الأقليات في المساهمة بتأسيس ونشر المدارس والمعاهد الأهلية في الولايات العراقية حتى عام 1914.

1. مدارس الطوائف المسيحية في الموصل:

في الوقت الذي كانتْ الإدارة العثمانية مُعرِضة عن دراسة مُشكلات سُكان البلاد، وتعليمهم وتثقيفهم، كانتْ الطوائف المسيحية في الموصل تُكافح من أجل تثقيف وتعليم أبنائها القراءة والكتابة والعلوم الدينية غيرها، فأنشأتْ مدارسها في كنائسها الخاصة لرفع مستواهم الثقافي ولإعدادهم لكي يجابهوا الحياة ومشاكلها بسلاح العلم والمعرفة، إذ كان المدرسون غالباً من رجال الدين الرُهبان والقساوسة، من ذوي الثقافة الجيدة بحُكم تتبعهم الدراسي الطويل وإطلاعهم على اللغات القديمة والحديثة، وتوافر الكُتب المخزونة في كنائسها والمطبوعة في مطابعها الخاصة في مختلف اللغات، لذلك كانتْ تلك المدارس تُغذي طلابها بثقافة لا بأس بها في تلك المدة[50]. ومن المدارس التي ساهمتْ في إنشائها الطوائف المسيحية في الموصل حسب تسلسلها التأريخي هي: مدرسة الكلدان الأهلية التي أُسستْ عام 1863، من قبل (روفائيل مازهجي) التي كان يُقبل فيها الشُبان الكلدان في الموصل، وتُدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية. وإلى جانب تلك المدرسة أُسستْ عدة مدارس بين عامي 1900 و1914، في كل من(تلكيف والقوش وباطناية وباقوفة وتلسقف)، أما درجاتها فكانتْ أولية وأشبه شيء بالكتاتيب وتدرس فيها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية أيضاً[51].

في السياق نفسه،أُسستْ مدرسة السريان الكاثوليك ومدرسة اليعاقبة الابتدائية في الموصل في مطلع القرن العشرين، واستمرتْ في عملها حتى دخول الجيش البريطاني للموصل. وذكرتْ إن (المس بيلMiss Bell 1868–1926) ،"**برغم أن أغلب سكان الموصل من المسلمين، إلا إن عدد طلاب المدارس المسيحية للطوائف الثلاث(الكلدان ، والسريان، واليعاقبة) 719 طالباً، بينما يبلغ عدد الطُلاب في مدارس المسلمين كلها 259 فقط**" [52].

2. مدارس الطوائف المسيحية في بغداد:

أنشأتْ الطوائف المسيحية مدارس خاصة لهم في بغداد أيضاً، وكان الإقبال على تلك المدارس أكثر مما كان عليه في المدارس الحكومية، لأن الأخيرة كانتْ تُدرس الدروس باللغة التركية، بينما كانتْ المدارس الطائفية تُدرس باللغة العربية والفرنسية والإنكليزية. وقد استفاد منها الكثير من أبناء المسلمين، إذ أنشأ الأرمن الأرثوذكس مدرسة ابتدائية للبنين والبنات عام 1853، وتُعد

من أقدم المدارس الأرمينية في بغداد، وبلغ عدد طلابها في نهاية عام 1914، (85) طالباً[53].

فضلاً عن ذلك، أُسست عدد من المدارس المسيحية منها مدرسة الأتفاق الشرقي الكاثوليكي عام 1878، التي قامتْ بتأسيسها الطوائف الكاثوليكية (الكلدانية والسريانية والأرمنية)، ومدرسة السريان الأهلية عام 1893، ومدرسة الكلدان الأهلية عام 1897، التي اهتمت بتعليم اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية، فضلاً عن العربية والكلدانية والتركية، وقد بلغ عدد طلابها عام 1914، (240) طالباً[54].

3-مدارس الطوائف المسيحية في البصرة:

لم تُنشأ مدارس أهلية أجنبية في البصرة بكثرة في تلك المدة، على غرار ولايتي بغداد والموصل؛ بل اقتصرتْ تلك المدارس حسب تسلسلها التاريخي على مدرسة راهبات التقدمة في البصرة عام 1906، ومدرسة الإناث اللاتين 1907، ومدرسة الأرمن عام 1911[55].

4-مدارس الطائفة اليهودية:

كان للطائفة اليهودية نشاط محموم منذ أواسط القرن التاسع عشر، ليس في العراق فحسب؛ بل في لندن وباريس حيث مقر الجمعيات الإسرائيلية، في سبيل رفع شأن اليهود في مختلف البلدان تنفيذاً للخطة الصهيونية المرسومة، وهو الذي حمل الدولة العثمانية على إعطائهم الحُرية أسوة بالطوائف الدينية الأُخرى، لاسيما في إدارة شؤونهم الطائفية الخاصة ولذلك في مقدمة الأعمال التي قاموا بإنشائها(المدارس الإسرائيلية)، فقد أولى (الاتحاد الإسرائيلي العالمي –الاليانس– Alliance Israelite Universally)[56]،أهمية كبيرة للتعليم، وقام بتأسيس عدد من المدارس الحديثة في العراق وعدد من البلدان العربية. ويوضح الجدول الآتي أسماء وتأريخ المدارس التي أنشأتها الطائفة اليهودية في بغداد حتى عام 1914.

جدول (1)

أسماء وتأريخ المدارس التي أنشأتها الطائفة اليهودية في بغداد حتى عام 1914[57].

اسم المدرسة	**تاريخ** أنشأتها
مدراش تلمود وتوراة	1832
الاتحاد الإسرائيلي" الاليانس	1865
لورا خضوري للبنات	1893
الإناث الإسرائيليات	1893
رفقة نوريل	1902
هارون صالح المختلطة	1909

اسم المدرسة	تاريخ أنشأتها
الأطفال المختلطة	1910
الوطن المسائية	1912
التعاون الموسوية	1913
المدراش الإسرائيلي	1913

لم يقتصر افتتاح تلك المدارس على مركز ولاية بغداد؛ بل شمل الأقضية التابعة لها إذ جرى افتتاح مدرستين يهوديتين في الحلة، ومدرسة ثالثة في خانقين. فيما ضمت ولاية الموصل عدداً من المدارس اليهودية يعود تاريخ افتتاحها إلى بداية القرن التاسع عشر، إذ جرى توزيعها على الشكل الآتي: مدرستان في لواء الموصل (المركز)، ومدرسة واحدة في كل من أقضية دهوك وكركوك والسليمانية وأربيل وزاخو. ثم تولت جمعية الاليانس افتتاح مدرستين حديثتين الأولى في الموصل عام 1907، والأخرى في كركوك 1913. في حين أُسست عدد من المدارس اليهودية في ولاية البصرة منها مدرستان في مركز الولاية أحداهما مختلطة والأخرى ابتدائية ، ومدرستان في العمارة ومدرسة واحدة في أقضية الناصرية، الشطرة، الحي، فيما قامت جمعية الاليانس بافتتاح مدرسة حديثة في البصرة[58].

انتهجت المدارس اليهودية النمط الغربي في دراستها مع عناية واضحة بالرياضيات والطبيعيات والعلوم الإنسانية، فضلاً عن تدريس عدد من اللغات منها العبرية، العربية، التركية، الفرنسية، الانكليزية، ونظراً للنظام والدقة والعناية بتوفير المدرسين والكتب المطبوعة التي اتسمت بها المدارس اليهودية ، فقد التحق للدراسة في تلك المدارس إعداد من الطلبة المسلمين والمسيحيين[59]. وبصورة عامة يوضح الجدول الآتي عدد المدارس الأهلية والأجنبية في العراق جتى عام 1914.

جدول (2)

عدد المدارس الأهلية والأجنبية في العراق حتى عام 1914[60].

ولاية بغداد/اسم المدرسة	عدد المدارس	عدد الطلاب	عدد الطالبات
الترقي الجعفري العثماني	1	300	----
مدرسة الأخوة الإيرانية	1	200	----
المدرسة الحسينية	1	100	----
المدرسة العلوية	1	70	----
المدرسة المرتضوية	1	70	----
مدرسة الهنود	1	120	----
مدرسة الكلدان	1	240	----
مدرسة السريان	1	70	----
مدرسة الأرمن	1	85	----
مدرسة الأرمن للبنات	1	----	45
مدرسة اللاتين	1	300	----

مدرسة اللاتين للبنات	3	----	800
مدرسة أخوات المحبة	1	----	45
مدرسة البروتستانت	2	40	28
مدرسة الألمان	1	160	----
مدرسة الاليانس	1	1000	----
مدرسة الاطفال	1	200	100
مدرسة التعاون	1	180	----
مدرسة المدراش	30	2700	----
مدرسة هارون صالح	1	116	120
مدرسة الوطن	1	150	----
مدرسة رفقة نوريل	1	100	275
مدرة لورة خضوري	1	----	600
مدرسة الاليانس الحلة	1	175	---
مدرس الاليانس خانقين	1	70	----
المجموع	57	6546	2013
ولاية الموصل/ مدرسة الكلدان	1	400	----
مدرسة السريان	1	250	----
مدرسة اليعاقبة	1	140	----
مدرسة الآباء الدونيكان	1	300	50
مدرسة أخوات المحبة	1	----	100
مدرسة الاليانس	1	175	---
المجموع	6	1265	150
ولاية البصرة/مدرسة الأميركان	1	200	----

الخاتمة

وفق ما تقدم في هذا البحث الموجز، يتضح ذلك جلياً إن السياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية أبان حكمها للعراق حتى عام 1914، هي سياسة(فرّق تسدّ)، وسياسة التتريك والقضاء على اللغة العربية، والقومية العربية تدريجياً، وعندما لم تفلح بذلك، حاولتْ إبقاء السُكان على جهلهم وتأخرهم، وكانتْ نتيجة تلك السياسة المقيتة أن ظلتْ الأكثرية من أبناء الشعب في العراق بمعزل عن العالم المتحضر المتمدن، فضلاً عن أثره السيء في تعقيد المشكلات، إذ أحدثتْ فجوات واسعة قاسى منها أبناء العراق الأمرّين، ومن جانب آخر، كان المجتمع العراقي عميق التأثر بالنزعة الدينية ولا يتقبل الروح العسكرية التي حرصتْ الدولة العثمانية على تنشئة ضباط عسكريين ومحاربين تحتاج إليها جيوشهم الكبيرة في شتى أرجاء إمبراطوريتهم، فكان الآباء يرجحون تنشئة أبنائهم في المدارس الدينية الأهلية.

أما نوعية المدارس وأما كيفية التعليم فليس من الأمور التي يسهل وصفها– إذا استثنينا بعض المدارس الأهلية–، فالمعلمون الأكفاء قلة والمناهج الدراسية قديمة مرتبكة لا تمتْ لحياة الناس بصلة، واللغة العربية غريبة في بلادها وتدرس كما تدرس

اللغات الأجنبية، لأن اللغة الرسمية المفروضة هي اللغة التركية.

في الوقت نفسه، أمتلكت الإدارة العثمانية في البلاد مدارس عسكرية وملكية إعدادية وسلطاني ومدارس إعدادية ورشدية، فالمدارس العسكرية كانتْ تغذي الجيش، أما المدارس الأُخرى فكانتْ تهيء المواطنين للوظائف الحكومية، ولكن الغالبية من أولياء الأمور كانوا يعلمون أولادهم في المدارس العلمية الدينية والكتاتيب والمدارس الأهلية الطائفية والأجنبية. لذلك نلحظ أن مجموع المدارس الأهلية والأجنبية في الولايات العراقية بلغ (64) مدرسة؛ وهو ما يُشكل نسبة 50% من أجمالي عدد المدارس في العراق حتى عام 1914، ضمت (8011) طالباً، و(2163) طالبة.

وعقب ضعف الدولة العثمانية، سيطر الغربيون على شؤونها فمنحتهم ورعاياهم الامتيازات الكثيرة، منها حرية فتح المدارس الأهلية والأجنبية ومنحتهم الاستقلال الكامل في إدارة شؤون مدارسها، كما سمح للإرساليات التبشيرية أن تؤسس لها مدارس أجنبية تتمتع بحرية وامتيازات لا حد لها. وعليه، لم تَسْعَ السلطة العثمانية إلى تثبيتْ جذور نظامها التعليمي والتربوي في البلاد، فما أن خرجوا منها بعد الاحتلال البريطاني عام 1914 حتى تحطم ذلك النظام التعليمي وتداعتْ أُسسه.

هوامش البحث:

(1) إبراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق(1869–1932)، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، مطبعة جامعة البصرة، 1983، ص 25.

(2) كارل بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ج4، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1950، ص17.

(3) جواد كاظم محيسن نجم، دار المعلمين العالية 1923–1958، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، جامعة بغداد، 2014، ص 7–8.

(4) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين (العهد العثماني الأخير)، الجزء الثاني، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1956، ص296.

(5) بهذا الصدد يذكر الباحث عبد الرزاق الهلالي: " **لما كان العثمانيون(سنيين) المذهب فقد ساروا في العراق على تأييد المذاهب السنية الأربعة، مستثنين من تلك الرعاية المذهب الجعفري الذي يحتل أتباعه جانبا كبيراً من البلاد، ولقد أحدث هذا التفريق والرعاية انقساماً في صفوف الأمة ومن ثم اختلاف منابع الدراسة ومعاهدها بين أبناء الطائفتين**".
عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، الطبع والنشر الأهلية، بغداد، 1959، ص43.

(6) سعيد الديوه جي، مدارس الموصل في العهد العثماني، مطبعة الجمهورية، الموصل، 1964، ص1؛ حسن أحمد سلطان، نظام التربية والتعليم في العراق(التعليم في العهد العثماني)، " مجلة المعلم الجديد"، ج1، مطبعة التفيض، بغداد، شباط 1947، ص 11–13.

(7) غانم سعيد العبيدي، التعليم الأهلي في العراق بمرحلتيه الابتدائية والثانوية تطوره ومشكلاته، مطبعة الإدارة المحلية، بغداد، 1970، ص29.

(8) Roderic D. Mattews and Matta Akrawi, Education in Arab Countries of the Near East, Washington, D. C. American Council of Education, 1949, P.45.

(9) سليمان فيضي، في غمرة النضال، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1952، ص11؛ إبراهيم خليل احمد، المصدر السابق، ص 26-27.

(10)عبد الرزاق الهلالي كاتب وباحث عراقي ولد في البصرة عام 1916، دخل دار المعلمين العالية في بغداد عام 1932، مارس مهنة تدريس اللغة العربية ، ثم دخل دورة ضباط احتياط وسرح من الخدمة بعد فشل حركة مايس 1941، ثم دخل كلية الحقوق المسائية، شغل العديد من المناصب في العهد الملكي. كتب مئات المقالات في الأدب والتأريخ والإقتصاد في المجلات العراقية والعربية، فضلاً عن عدد من المؤلفات القيمة.

جواد كاظم محيسن نجم، المصدر السابق، ص 278-280.

(11)عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج1، مطبعة النجاح، بغداد، 1953، ص213.

(12)عزيز جاسم الحجية، بغداديات، السلسلة الثقافية14، بغداد، 1967، ص196.

(13)عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج1، مطبعة النجاح، بغداد، 1953، ص213.

(14)في عام 1889 أسس مجموعة من طلبة مدرسة الطب العسكري في اسطنبول جمعية سرية كانت غايتها وضع نهاية لحكم عبد الحميد الثاني وإعادة دستور 1876 المعطل، وكان هؤلاء الطلاب متأثرين بالحياة الفكرية والسياسية في أوربا واتخذت الجمعية اسم الاتحاد والترقي واصبح إبراهيم تيمو الألباني رئيسا لها، غدتْ مقدونيا ومركزها سلانيك، مركزاً لتجمع الضباط الذين شكلوا العديد من التنظيمات في الجيش، إذ أسفرت التطورات الداخلية عن قيام جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1867-1909) من اجل إعادة العمل بالدستور، الذي كان السلطان المُشار إلية قد أوقفه منذ عام 1877.

للتفاصيل يُنظر: علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، طرابلس، 1997، ص350- 355، روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج2، بيروت، 1997، ص 322- 334.

(15) ساطع الحصري، حولية الثقافة العربية 1948-1949، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1949، ص3-4.

(16)كان من دعاة الحركة القومية العربية، ولد في اليمن عام 1880، وأصله يرجع من حلب، درس في اسطنبول، وعندما قامت الثورة العربية الكبرى عام 1916، ساهم في تأسيس أول دولة عربية في سورية، وعُين وزيراً للمعارف، غادر سورية بعد الاحتلال الفرنسي مع الملك فيصل الأول، وعند تأسيس المملكة العراقية أستدعاه فيصل ليشغل منصب مدير المعارف، له العديد من المؤلفات في التربية والتعليم. يُنظر: كوركيس عواد، معجم المؤلفين العراقيين في القرن التاسع عشر والعشرين 1800-1969، مج2، مطبعة الارشاد، بغداد، 1969، ص 16-18.

(17)ساطع الحصري، مذكراتي في العراق 1921-1927، ج1، دار الطليعة، بيروت، 1966، ص437.

(18)أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر، ج2، مطبعة النصر، القاهرة، 1945، ص304-305.

(19)محمد أحمد العُمر، المصدر السابق، ص 2.

(20)يقصد بالسناجق جمع سنجق وهو اللواء أصغر أدارياً من الولاية، إذ كانت كل ولاية مقسمة إلى عدد من الولايات.

(21)ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، ص99.

(22)هي أسرة سيطرت على سياسة الموصل منذ بداية القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر ومن ابرز ولاة تلك الأسرة هو حسين باشا الجليلي و سليمان باشا الجليلي. يُنظر:

طارق نافع الحمداني، صمود الموصل بوجه الغزو الفارسي (1145-1156هـ/1732-1743م)، موسوعة الموصل الحضارية ، مج4 ، جامعة الموصل ، 1992، ص38 .

(23)سليمان الصائغ، تاريخ الموصل، ج1 ، المطبعة السلفية، القاهرة، 1923، ص41؛ سالم الحمداني، التعليم في الموصل في القرن التاسع عشر، "مجلة آداب الرافدين" ، عدد10 ، جامعة الموصل ، 1979، ص411.

(24)هاشم الأعظمي، تاريخ جامع الإمام الأعظم، ج1، مطبعة العاني، بغداد، 1964، ص90.

(25)علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، مطبعة الفرات، بغداد، 1927، ص137.

(26)جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، قسم النجف، ج2، دار التعارف، بغداد، 1966، ص36.

(27)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص 102-103.

(28)عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ص89.

(29)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص106.

(30) لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق 1869-1918 ،أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب ،جامعة الموصل ، 2003، ص35.

(31) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص 28-29.

(32)عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق 1908-1945، ط2، دار الرشيد النشر، بغداد، 1980، ص 31.

(33)علي البازركان، فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق. ذكريات ووثائق، ط2، مكتب اسوان للطباعة، بغداد، 1993.

(34)جواد كاظم محيسن نجم، المصدر السابق، ص 25.

(35)سماورات جمع سماور وهي كلمة فارسية معناها جهاز لغلي الماء للشاي. وتجدر الإشارة أن الحاج سلمان أبو التمن هو عم جعفر أبو التمن وهو تاجر معروف توفى شباط 1909. يُنظر:عبد الرزاق عبد الدراجي، المصدر السابق، ص 32.

(36) علي البازركان، المصدر السابق، ص31-32؛ عبد الرزاق عبد الدراجي، المصدر السابق، ص 32.

(37)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني ، ص 175.

(38)محمد مهدي الأصفهي، مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف، د.ت، ص 8-11؛ علي البازركان، المصدر السابق، ص 46-47.

(39)عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى، بغداد، 1963، ص 84.

(40) وسام هادي عكار التميمي، مكتب الترقي الجعفري العثماني(المدرسة الجعفرية)، " جريدة المدى"، العدد 4349، 14 كانون الثاني، 2019، ص 6.

(41)أبدل اسم المدرسة من مكتب الترقي الجعفري العثماني إلى المدرسة الجعفرية بعد الاحتلال البريطاني لبغداد عام 1917، خوفا من إغلاقها.

(42)عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج7، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1955، ص296؛ عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني ، ص 176.

(43)غانم سعيد العبيدي، المصدر السابق، ص 42؛ إبراهيم خليل احمد، المصدر السابق، ص 48.

(44)خولة طالب لفتة، سليمان فيضي ودوره السياسي والثقافي والاجتماعي في العراق 1885–1951، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية، 2003، ص 29–30.

(45)مفيد إبراهيم حلمي العُمر، الأدوار التاريخية لمعارف لواء البصرة، المطبعة العربية عشار، البصرة، د.ت، ص4؛ جواد كاظم محسن نجم، المصدر السابق، ص 24.

(46) سليمان فيضي، المصدر السابق، ص71–74؛ جواد كاظم محسن نجم، المصدر السابق، ص 24.

(47)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص 187–188.

(48)ساطع الحصري، حولية الثقافة العربية لسنة 1948–1949، ص11.

(49)جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير 1886–1918، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2000، ص 371–373.

(50)سليمان صائغ، المصدر السابق، ، ص325–327.

(51)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص 193–194.

(52)المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، ط2، دار الرافدين ، لبنان، 2004، ص 84.

(53)غانم سعيد العبيدي، المصدر السابق، ص 45.

(54)روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الأقطار العربية إلى أيامنا، مطبعة المنصور، بغداد، 1948، ص143.

(55)لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، المصدر السابق، ص 40–41.

(56)أُسس في باريس عام 1860 ، كان له الدور الرئيس في تعزيز النفوذ الصهيوني عن طريق عدة وسائل كان التعليم أحد تلك الوسائل، إذ هدف إنشاء المدارس إلى إيجاد مرتكز اجتماعي وثقافي للحركة الصهيونية. يُنظر: فاضل البراك ، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق" دراسة مقارنة " ، مطبعة دار الرشيد ، بغداد، 1984، ص26.

(57)عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص 206–208؛ فاضل البراك، المصدر السابق، ص 27–30.

(58)باسم حمزة عباس، تاريخ التربية والتعليم في البصرة 1921–1958 ، رسالة ماجستير(غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، 1992، ص14 ؛ فاضل البراك، المصدر السابق، ص 30–31.

(59)لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، المصدر السابق، ص41–42.

عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، ص 208–209.